الحلقة (١٥)

أتمم، والإمام الشافعي هو أول من دون علم أصول الفقه، وليس معنى هذا أن ما قبل تدوين الشافعي لم يكن أصول فقه يعمل به، بل كان أصول الفقه موجودا منذ عهد التشريع النبوي، إذ كان الصحابة يفهمون دلالة النصوص وأن الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، وأن المتأخر ينسخ المتقدم، وبعد عصر الرسول ﷺ وجدنا الصحابة يسلكون الطريق السليم لاستنباط الأحكام الفقهية من أصولها، ولم تكن تلك الأحكام الفقهية مبنية على الارتجال وعدم الانضباط، بل كانت مبنية على أسس سليمة من قواعد الاستنباط.

فهذا مثلا عبد الرحمن بن عوف يأخذ بقاعدة سد الذرائع، فيشير على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم بأن يجلد شارب الخمر ثمانين كأخف الحدود، ومثله علي بن أبي طالب لأن من شرب الخمر سكر، وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى، وكذلك عمر بن الخطاب يأخذ بسد الذرائع على من طلق ثلاثة بلفظ واحد فيمضيه ثلاثا، لأن الناس تساهلوا في ذلك، وتوسعوا فيه، وقد روى مسلم بسنده عن ابن عباس قال: "كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلوا أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم" وقال الشيخ محمد أبو زهرة: "نشأ علم أصول الفقه مع علم الفقه، وإن كان الفقه قد دُوّن قبله، لأنه حيث يكون فقه يكون حتما منهاج للاستنباط، وحيث كان المنهاج يكون حتماً لا محالة أصول الفقه".

وقد جاء الإمام الشافعي فوجد ثروةً فقهيةً أُثرت عن الصحابة والتابعين وأئمة الفقه الذين سبقوه، كما وجد الجدل والمناظرات بين الفقهاء بشتى آراءهم واتجاهاتهم، فوجد المناظرات قائمة بين فقه المدينة وفقه العراق، فخاض غمارها بعقله الأريب وعلمه الوفير، فوضع موازين يتبين بها الخطأ من الصواب في الاجتهاد وهذه الموازين وضعها في **كتابه الرسالة،** [وهو كتاب مطبوع حققه الشيخ أحمد محمد شاكر وقد طبع طبعته الأولى سنة ١٣٥٨هـبشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده في مصر وهو يتكون مع فهارسه من ٦٧٠صفحة]، لا غرابة أن تتأخر عن علم الفقه، إذ كل ضوابط العلوم وقواعدها تتأخر عن العلوم نفسها، فالنحو مثلا متأخر عن النطق باللغة العربية، والشعراء كانوا يقولون الشعر موزونا مقفى قبل أن يضع الخليل بن أحمد قواعده في علم العروب، والناس يتجادلون و يتنافسون ويفكرون قبل أن يدون علم المنطق.

أيضاً من الأسباب التي أدت إلى ازدهار الفقه في هذه المرحلة:

٤.اكتشاف مادة الكاغب وتأثيرها على العلوم الإسلامية بعامة والفقه بخاصة، فلقد كان العلماء

يعتمدون على تدوين العلم في الصدور، فكانوا يحفظون ولا يكتبون، وقد وصف الله العرب الذين بعث فيهم محمد بأنهم أمة أمية قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة]، وقد درجوا على الاعتماد على الحفظ وذلك لصعوبة وسائل الكتابة، إذ كانوا إذا أرادوا الكتابة كتبوا على الجلود والجريد واللخاف والعظام والحجارة، وهذا يصعب الحصول عليها، وإذا تحصل عليها فهي غالية الثمن أو قليلة الجدوى، كالكتابة على الحجارة والعظام فهي لا تأخذ شيئا كثيرا من الأسطر، ويصعب حملها ونقلها، ثم طريقة الاستنساخ باليد مجهدة ومبلية، ولكن يشاء الله تعالى أن يُكتشف في عهد المأمون الخليفة العباسي مادة الكاغب، يكتشفها الفضل بن يحي البرمكي فيكتب فيها رسائل الخليفة والرسائل الرسمية، ثم بعد أن كثر، بدأ العلماء يكتبون على مادة الكاغب كتبهم، وبخاصة الكتب والموسوعات التي تتألف من مئات الصفحات بل آلاف الصفحات، ولهذا سهل على طلاب العلم الحصول على الكتب وما يريدونه من العلم، فكان له أثره على إثراء العلوم الإسلامية، والفقه بخاصة، فانتشر العلم ودُوِّن.

٥.**كثرة الوقائع الفقهية،** فمنذ بداية الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين بدأت الوقائع الفقهية تكثر، حيث ترامت أطراف الدولة الإسلامية فشملت العراق وبلاد فارس والشام ومصر وأضيفت هذه الولايات الجديدة التي تم فتحها إلى الدولة الإسلامية، فزاد عدد السكان وتشعبت حاجاتهم، وتوسعت مصالح المسلمون التجارية، وأيسر الله عليهم، واختلط المسلمون بغيرهم، وحصل التزاوج بينهم والتجارة، بعد استقرار الأوضاع إثر انشغال المسلمين قبلُ بالجهاد، كل هذه الأمور دفعت بالعلماء للاجتهاد لمواجهة كثرة المشكلات التي وجدت، والعادات التي طرأت، من جراء دخول الناس في دين الله، إذ لهم أعراف وعادات تحتاج إلى حكم الإسلام فيها، وبهذا توسع الفقه وازدهر، فشمل فتاوى لم تكن معروفة من قبل.

٦.**ظهور الأئمة المجتهدين وأصحاب المذاهب المدونة،** وهم ثلاثة عشر إماماً:

١.الحسن بن أبي الحسن البصري، ٢.أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ٣.عبد الرحمن بن عمر الاوزاعي، ٤.سفيان بن سعيد الثوري، ٥.الليث بن سعد، ٦.مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، ٧.سفيان بن عيينة، ٨.محمد بن إدريس الشافعي، ٩.إسحاق بن إبراهيم بن راهويه، ١٠.أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، ١١.أحمد بن حنبل، ١٢.داوود بن على الظاهري، ١٣.محمد بن جرير الطبري،

وقد كان لظهور هؤلاء الأئمة الثلاثة عشر أثر كبير في نشر العلم وإثراء الفقه لاجتهاداتهم الفقهية، ولم يعد الفقه حجازيا أو عراقيا، بل التقى علماء الحجاز والكوفة والبصرة والشام، أهل الحديث والرأي واستفاد كل منهم من صاحبه وأخذ عنه.

ويعد علم الفقه من أشرف العلوم وأجلها فيها، حيث نقلت إلينا اجتهاداتهم وأرآءهم وفتاويهم

واستنباطاتهم وتوجيهاتهم واستدلالاتهم، فهذا من أسباب ازدهار الفقه ووصوله إلينا شاملا تاما كاملا مقعدا مؤصلا، نستفيد وننهل من معينه الصافي.

* التعريف بالأئمة والمجتهدين المدونة مذاهبهم:

العلم الأول: الحسن البصري: هو/ الحسن بن يسار البصري، ولد بالمدينة سنة ٢١هـوتوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ، هو تابعي، إمام أهل البصرة وأحد الأئمة في زمنه، وهو أحد العلماء الشجعان الفقهاء، فصيح بليغ ذو بيان، شبّ في كنف علي بن أبي طالب، وعَظُمت هيبته في القلوب من الأمراء والولاة، لأنه لا يخاف بالحق لومة لائم، وكان أبوه مولى لبعض الأنصار من أصل نيسابور، روى عن نحو مئة وعشرين من الصحابة، منهم: عثمان وعلي وعمران بن حصين وابن عباس وابن عمر، يقول ابن القيم: "وأدرك خمسمائة من الصحابة" وقد ألف ابن الجوزي كتابا في مناقبه، وقال ابن سعد: "كان إماما جامعاً وفقيهاً ثقةً مأموناً عابداً كثير العلم، حتى جمع بعض أهل العم فتاويه في سبعة أسفار ضخمة" [كما قال ذلك ابن القيم في أعلام الموقعين]، وله مواقف مع الحجاج ولكن الله سلمه، ولما وُلّيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه "إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر إلى أعوان يعينونني عليه" فأجابه الحسن قائلا: "أبناء الدنيا لا تريدهم، وأبناء الآخرة لا يريدونك، فاستعن بالله"، يقول الإمام الغزالي: "كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم السلام، وأقربهم هديا من الصحابة رضي الله عنهم، كان غاية في الفصاحة يتصبب الحكمة بفيه" رحمه الله.

العلم الثاني: عبد الرحمن الأوزاعي: هو/ عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، من قبيلة أوزاع ولاءً، ولد ببعلبك سنة ٨٨هـوتوفي ببيروت سنة ١٥٧هـ، وهو إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وقد عرض عليه القضاء فامتنع، قال الثوري: "قد انعقد الإجماع على جلالته وإمامته وعلو مرتبته وكمال فضله، كان رحمه الله يكره القياس، ويقف مع السنة، روى عن كبار التابعين كعطاء بن أبي رباح وابن سيرين وابن مضعون" قال ابن إسحاق: "إذا اجتمع الأوزاعي والثوري ومالك على الأمر فهو سنة"، وقد انتشر مذهبه في الأندلس لكثرة الداخلين إليها من الشام، ثم في زمن الحكم بن هشام تغلب على الأندلس مذهب الإمام مالك، قال صالح بن يحي في تاريخه: "كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان"، وله بعض المؤلفات ككتابه في السنة وفي الفقه والمسائل، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة.

العلم الثالث: سفيان الثوري: هو/ سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناف بن مضر، ولد في الكوفة سنة ٩٧هـومات بالبصرة سنة ١٦١هـ، وكان سيد أهل زمانه في الحديث والفتوى، وكان قد ارتحل إلى مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة، ومات بها مستخفيا، له من الكتب "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير" وكلاهما في الحديث، وكتاب في الفرائض، وكان آية في الحفظ لا يسمع شيئا إلا حفظه، روى عن أعلام التابعين كالأسود بن يزيد ويزيد بن

أسلم، وقال الخطيب البغدادي: "كان الثوري إماما من أئمة المسلمين وعلما من أعلام الدين، مجمعاً على إمامته، بحيث يستغنى عن تزكيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد".

العلم الرابع: الليث بن سعد: هو/ الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم، وهو مولى قيس بن رفاعة الفهمي، وأصله من أصبهان، ولد في قرية من قرى مصر سنة ٩٤هـ وتوفي في القاهرة سنة ١٧٥هـ، سمع عطاء بن أبي رباح بن أبي مليكة، وابن شهاب الزهري، وروى عنه خلق كثير منهم لهيعة وابن المبارك وأشهب، كان رحمه الله من الكرماء الأجواد قال الإمام الشافعي: "الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به" وقال أبو زرعة: "سمعت ابن بكير يقول الليث أفقه من مالك ولكن كانت الحظوة لمالك"، وقيل كان كبير الديار المصرية ورئيس وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب تحت إمرته ومشورته، وله مصنفات وأقوال كثيرة ألف ابن حجر العسقلاني جزءً في ترجمته وفضائله.

العلم الخامس: سفيان بن عيينه: هو/ سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرم المكي، أحد موالي بني هلال، مولى محمد بن مزاحم أخو الضحاك، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ وتوفي بمكة سنة ١٩٨هـ، وكان رحمه الله حافظا ثقة، قال الشافعي: "لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز"، سمع من سبعين من التابعين، وشارك مالكا في أكثر شيوخه، كزيد بن أسلم والزهري، وروى عنه عبد الله بن المبارك وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي والإمام أحمد بن حنبل ويحي بن المعين والمديني، قال الشافعي: "العلم يدور على ثلاثة: على مالك والليث وابن عيينة" وكان من جملة السابقين إلى التأليف، له مسند وتفسير.

العلم السادس: إسحاق بن راهويه: هو/ إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، ولد سنة ١٦١هـ في طريق مكة وتوفي سنة ٢٣٨هـ بنيسابور، وسمي بهذا الاسم لأنه ولد بالطريق فقال أهل مرو "راهويه" ومعناه بالفارسية "ولد في الطريق"، وهو عالم خراسان في عصره، و أحد كبار الحفاظ، طاف البلاد لجمع الأحاديث، وأخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي، قال الدارمي: "ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه" قال الخطيب: "اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد"، وقد رحل إلى الحجاز والعراق والشام واليمن، وله تصانيف في السنة والذب عنها رحمه الله رحمة واسعة.

العلم السابع: أبو ثور الكلبي: هو/ إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي، المتوفى في بغداد سنة ٢٤٠هـ، الفقيه وأحد المجتهدين، وقد أخذ العلم عن ابن عيينة ووكيع، وقد أخرج له مسلم خارج الصحيح،كما أخرج له أبو داوود وابن ماجة، قال الإمام أحمد: "هو عندنا في مسلاخ الثوري (أي في طريقته) أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة"، وقال ابن حبان: "كان فقيهاً ورعاً وقد صنف كتبا كثيرة في اختلاف مالك والشافعي".

العلم الثامن: داوود بن علي الظاهري: هو / داوود بن علي بن خلف الأصفهاني الملقب بالظاهري، إليه تنسب الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة، وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس، وقد ولد بالكوفة سنة ٢٠١هـوسكن بغداد وفيها توفي سنة ٢٧٠هـ، وقد انتهت إليه رئاسة العلم في بغداد، حتى قيل أنه يحضر مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر، وأخذ برأيه علي بن أحمد بن حزم صاحب كتاب المحلى، كان رحمه الله ورعا زاهدا ناسكا، وله من التصانيف قالوا ما يزيد على ثلاثين مصنفا.

العلم التاسع: ابن جرير الطبري: هو / محمد جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، ولد في "آم قبرستان" ٢٢٤هـواستوطن بغداد وتوفي بها سنة ٣١٠هـ، قال ابن خزيمة: "ما أعلم أحد على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير" وقال الخطيب البغدادي: "جمع من العلوم ما لم يشاركه فيها غيره"، كان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات، بصيرا بمعانيه، فقيها بأحكامه، عالما بالسنة وأحكامها وصحيحها وسقيمها والناسخ والمنسوخ، وبأقوال الصحابة ومن بعدهم، يدل على ذلك تفسيره الكبير الذي لم يؤلف مثله، وكان رحمه الله له أتباع ثم انقطعوا بعد الأربعمائة، ومنهم علي بن عبد العزيز، ومن المتفقهين على مذهبه علي بن عبدالعزيز الدولابي [صاحب كتاب الرد على ابن المفلس الظاهري] وأحمد بن يحيي المنجم [مؤلف كتاب المدخل إلى مذهب الطبري]، **وله كتب كثيرة منها**: ١.(الجامع والبيان في تفسير القرآن) المشهوربـ(تفسير الطبري). ٢.كتاب (أخبار الرسل والملك) أو (تاريخ الأمم والملوك) المعروف بـ(تاريخ بالطبري). ٣.كتاب (اختلاف الفقهاء) دفنه ولم ينشر إلا بعد موته، هؤلاء هم أبرز الأئمة من التابعين، الذين رأينا أن نترجم لهم لأهمية إعطاء لمحة موجزة عن كل منهم.